الوقوف في المقام: مقامات بلا راعٍ وراعٍ صالح

إن التصوير المفهومي والتأنيس في السريانية ليس مجرد فعلٍ بسيطٍ إعطاءَ أسماء. فالاسم لا يُعرّف فقط؛ بل يُوجّه، ويؤثر، ويبني المعنى والذاكرة.

لهذا السبب، فإن الاسم في عالم الفكر السرياني ليس مجرد مُشير سلبي؛ بل عنصر حيّ يمتلك قوة الفاعلية والتأثير. ويُستخدم الاسم (أو التأنيس) كثيرًا في سياق إبقاء الأثر حيًا، وحفظ الذاكرة، وتجسيد قيمة، ورفعها، وعكسها نحو المستقبل.

في هذا السياق، فإن اسم **Roʿyo** / ܪܥܝܐ في السريانية القديمة لا يقتصر على معنى مفرد وضيق؛ بل يحمل مجالًا دلاليًا واسعًا وديناميكيًا. فاسم **Roʿyo** / ܪܥܝܐ يجمع في داخله معانٍ متعددة، مثل: الرقيب، القائد، الراعي، القسيس، المطران، الزعيم، وقائد الشعب. ويتخذ هذا الاسم أصله من الفعل **raʿo** (ܪܥܐ).

وهذا اللفظ لا يعبّر عن راعٍ يرعى الماشية فحسب؛ بل يدل على مَن يرعى الناس، وقلوبهم، واتجاهاتهم، ويبقى عَيْنَه عليهم. ولهذا يكتسب صفة **Roʿyo** / ܪܥܝܐ معناها المباشر من قول المسيح: «**أنا الراعي الصالح**» (يوحنا 10: 14–16). ذلك أن المسيح في الثقافة السريانية لا يُنظر إليه على أنه مجرد معلّم، بل على أنه رأس جميع الرعاة/المقامات، أي الدليل النهائي للحقيقة.

إن الكلمة **Roʿyo** (ܪܥܝܐ) في السريانية تمتلك مجالًا واسعًا جدًا من الدلالة، ويعكس هذا الاتساع بصورة عميقة فهم الثقافة السريانية للإدارة والهداية. إذ يحمل هذا الفعل معاني: الرقابة، المراقبة، الرعي، ترسيم الأعشاب، قيادة القطيع، التوجيه، والهداية، كما يضم في الوقت نفسه أبعاد العلاقة والرضا، مثل: الإطعام، والتغذية، والقبول، والرضا، والارتياح.

كما يحتوي على معانٍ ذهنية وأخلاقية وإدارية، كالتفكير، والتفكّر، وقبول الوهم، والإدارة، والحكم، ومراعاة الشأن، والمراقبة، والتحذير، ومراعاة الاعتبار، والارتياح والرضا.

في السريانية، لا تُفهم الرعاية بوصفها إدارةً خارجيةً فحسب؛ بل بوصفها وعيًا داخليًا، ومسؤولية وجدانية، وحالةً توجيهيةً للعقل معًا.

ومن هذا الجذر تنبع كلمة **Roʿyo** / ܪܥܝܐ التي تحمل معاني: المرعى، والمرج، والعشب، والعلف. وتمثّل **Roʿyo** / ܪܥܝܐ ذلك المكان الذي يأخذ فيه الراعي قطيعه، وحيث يُطعَمون، ويبقى فيهم الحياة. وفي المستوى المجتمعي والروحاني، تحيل هذه الكلمة إلى حقول الحياة التي يستطيع فيها الإنسان أن يتنفَّس، وأن يُغذَّى بالعدل والرحمة.

كما أن هناك كلمة أخرى منبثقة من الجذر نفسه، هي **reᶜyono / ܪܥܝܢܐ**، والتي تجمع في داخلها معانٍ مثل: الفكرة، والنوايا، والعقل، والدماغ، والضمير، والتفكير، والحدس، والذكاء، والإدراك، والقدرة، والهدف، والمقصد. وهذا يُظهر أن الرعاية في الثقافة السريانية لا تقتصر على توجيه العالم الخارجي، بل تتضمَّن أيضًا توجيه العالم الداخلي، والنوايا، والأفكار، والضمير.

وهكذا يصير **Roᶜyo / الراعي** / المَقام شخصًا لا يرعى القطيع فحسب؛ بل يرعى المعنى، والتوجُّه، وافق الإنسان الباطني معًا. ففي السريانية، المَقام / mᵊḳomo / **ܡܩܡܐ** ليس مجرد مركز أو وضع اجتماعي؛ بل هو المكان الذي تقوم فيه «**حقيقة» الإنسان، وأصالته**» في أعماقه.

وكلمة **mᵊḳomo** المرتَبطة بالفعل **Ḳom / ܩܡ** تعبر في آن واحد عن: الوقوف، والقيام، والانبعاث، والانتعاش، والدعم، والمبادرة، والثبات في الكلام، وتأكيد الوجود، والبقاء في الحقيقة. ولهذا السبب، فإن **mᵊḳomo / المَقام** ليس درجةً نصعد إليها، بل هو حالة أخلاقية نقيم فيها بنحو مستمر وبتحمل مسؤولية.

إن **mᵊḳomo / المَقام** هو حالة وجدانية تتطلب الوقوف الدائم، أي اليقظة والانتباه. الإنسان لا يكون فيه مجرد حاضرٍ أو مُقِيم؛ بل يكون خادمًا له، ويفعل كل ما يُحييه ويُبقيه نابضًا وحيًا. فالمَقام ليس مكانًا للجلوس، بل مكانًا للقيام، والانبثاق، والوقوف، والثبات، و«**القيام**»، والاندماج في الخدمة.

مع ذلك، وعبر التاريخ – وفي يومنا هذا أيضًا – فقدت العديد من المقامات هذا المعنى الداخلي، وصارت بلاهية وفارغة من هذا المضمون. امتلأت المقاعد، لكنّ الأسماع خَلَتْ.

إن صرخة القديس أفرام النصيبيني (306–373)، المُرتفعة قبل قرون، تشير تمامًا إلى هذا الانهيار الروحي: «**نَمتِ الشوك، واحتُوت الأشواك على بذور حقيقة المسيح فخَنقَتها. ودُوسَتِ الحقول المزروعة تحت الأقدام، وسُحِقَت، بسبب فتور المزارعين. ونزلت الذئاب إلى الحقول كيفما شاءت، ونهبتها، لأن الحراس ناموا. ولم يبقَ هناك راعٍ يقفَ في وجههم (ḳoᵓem / ḳoyem) ويصدّهم ويُعيدهم.**»

إن ما يصفه مور أفرام هنا ليس تهديدات خارجية فقط. إن «**الأشواك**» يمكن تفسيرها، بدلالة ارتباطها اللغوي بجذور كلمة **Roᶜyo / ܪܥܝܐ** و**reᶜyono / ܪܥܝܢܐ** في السريانية، مع معنى «**التفكير**» وحالة «**الإدراك الذهني**» في وضعها السلبي/التحفيزي، على أنها: فكرٌ فاسد، ونيةٌ ملوّثة، وضميرٌ مترهّل. و«**الحقل**» هو قلب الإنسان؛ ونسيج المجتمع. و«**البذرة**» هي تعليم المسيح الحيّ. وعندما ينام الراعي، أي حين تُترك reᶜyono / **ܪܥܝܢܐ – العقل**، والحدس، والإدراك، والضمير – فلا مفرّ من ازدياد الذئاب.

إن كلمة **Roᶜyo / ܪܥܝܐ** في السريانية، بمعنى «**الراعي**»، لا تدل على الشخص القائم بالمهمة الإدارية فقط؛ بل على مَن يفكر، ويلاحظ، ويراعي، ويحذّر، ويرعى، ويبذل المسؤولية.

وليس من قبيل المصادفة أن يحمل الفعل **ʳᵉᶜo / ܪܥܐ** معنيَيْ «**الرعي والتفكر**» معًا؛ فهذا يصف جوهر الإدارة في الثقافة السريانية: فالإدارة تتطلب أن يُغذَّى القائد بالتفكير. فالإمارة هي أولاً فهم، والتوجيه هو أولاً امتلاك ضمير.

لهذا السبب، فإن كل شخص يحمل مركزًا ومَقامًا في الأسرة، أو في الكنيسة، أو في السياسة، أو في المدرسة، أو في العلم، أو في الأكاديمية، أو في الطب، أو في الثقافة، أو في الإعلام، أو في الأدب، أو في الحياة المهنية، أو في المجال المدني، أو في المجال العام، إذا كان ينطلق من روح «**الراعي الصالح**» (يوحنا 10: 14–16)، فيجب أن يتحمّل أيضًا امتلاك قلبٍ مُسهِّل. لأن «**الراعي الصالح**» لا يضع العقبات؛ بل يفتح الطرق. لا يثقل بالأحمال؛ بل يحملها. لا يُنتج الخوف؛ بل يبني الثقة. لا يُهمِل؛ بل يُتحمّل المسؤولية. يُراعي، ولا يؤذي. يُكمّل، ويطوّر. ففي عالمٍ كثيف بالتحيّزات والانكسارات والصراعات، فإن الفضيلة الحقيقية لا تكمن في تكثير الصعوبات، بل في إبقاء الضمير والأخلاق حيّين، وفي توسيع المعنى والنمو.

عبارَة «طريق الحقيقة يتسع بآثار أقدامِ الَّذين يسهّلون» تعبر تمامًا عن هذا المعنى. فالتيسير ليس استراتيجية، بل حالة حكمة؛ هي أن يترك إنسانٌ عبرَ إشراقه الداخلي، نورًا في طريق غيره. لذلك يجب على كل شخص يخدم المجتمع في أي مجال أن يكون قادرًا أولًا على أن يكون هو نفسه، وأن يبقى هو نفسه. وأن يُظهر مَوقِفًا لا يُثقِّل، بل يُخفّف، ويُنمّي المعنى، ويُكثِّر الأخلاق والفضيلة.

فإذا ما أظهر هذا السلوك من الناحيتين المادية والروحية، يكتشف إنسانٌ حبَّه لذاته، واحترامَه لذاته، وقيمةَ ذاته، ويبتَدئ في كتابة قصته الخاصة. وينفتح بهذا الوعي طريقُ إدارته لذاته، وتجاوزه لذاته. وعندما تُتجاوز الأغراض الفاسدة كـالكِبر، والغيرة، والغضب، والطموح المتوحش، والمقارنة، والإقصاء، وادِّعاء التفوق، والتملّك، والأنانية، يَستيْقِظ «الراعي الداخلي». ويفهم الإنسان أن بعض الخسارات وبعض التخليات ليست نهايةً، بل أبوابًا تفتح على الهوية الحقيقية.

إن افتتاح أبواب الذهاب إلى الهوية الحقيقية يتطلب فقط أن يتذكّر حامل المَقام، أو أن يَقبَل، أنه في كل الأحوال هو **talmido / tilmiz / ܬܠܡܝܕ / الطالب**. ففي السريانية، ينبع اسم **talmido / ܬܠܡܝܕ** من جذر **lᵊmad / ܠܡܕ**، ويعني: ربط الشيء بشيء، وجمعه، واجتماعه، وضمّه، وجمعه، وجمعه، وربطه، وتركيبه، وتعلّمُه، وتعليمُه.

إن الثقافة السريانية تُوحّد كل هذه الطبقات في حقيقة واحدة: الأهم ليس الرغبة في هيبة المَقام، بل أن يُعَدّ حاملُ المَقام هذه الوعيَّ والمسؤوليةَ هما الجوهر؛ بل أن يجعلَ من هذه الحقيقةِ محورَه الأول.

لأن المَقام، ما دام **mᵊḳomo / ܡܩܘܡܐ**، يكون ذا معنى؛ وقيادته، ما دامت **Roᶜyo / ܪܥܝܐ**، تكون مُعطيةً للحياة. وحين يُحسَدُ «**الراعي الحقيقي**» يكثر الذئاب؛ وحين يُستيقظ الضمير، تُخضرَّ الأرض من جديد.

ملفونو يوسف بختاش

رئيس جمعية الثقافة واللغة السريانية وادبها / ماردين